الأدب فى سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التى غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للاستاذ محمود الخفيف

— ١٥ —

بين الطغيان والحرية :

واستبد شارل بالأمر أحد عشر عاما لقى أثناءها الإنجليز ماشاء له طغيانه من ضروب العسف والأذلال ، وكان وليم لود[1] الذى رقى عام ١٦٣٣ إلى منصب كبير الأساقفة مشيره فى الشؤون الدينية ولورد استرافورد مشيره فى الشؤون السياسية .

وامتحنت الحرية امتحانا طال ليله واشتد بالناس هوله ، وسلط لود على البيوريتانز من أنواع الاضطهاد وأساليب العسف ما شاء له سلطانه وما أملاه غيظه وغلظه فكانت تكوى جباههم وصفحة وجوههم بالحديد المحمى أو تقطع أطراف آذانهم أوأنوفهم وليس لهم منجاة من هذا العذاب إلا أن يطرحوا عقيدتهم ؛ ولكنهم كانوا يعدون آذانهم وجباههم ووجوههم وأنوفهم جماعات إلى من يكويها أو يتحيفها دون أن يذل لهم إباء أو تهن لهم عقيدة ، وكانوا كلما أمعن لود فى تعذيبهم ازدادوا تمسكا بمذهبهم وازداد مذهبهم رسوخا وانتشاراً كالشجرة كلما امتدت إليها الأيدى بالتقليم تغلغلت فى الثرى جذورها وامتدت فى الجو فروعها .

ولم يقتصر التعذيب على عامة البيوريتانز ، فامتد إلى الخاصة وشمل كل من كتب شيئا ضد الملك أو الأساقفة ، وكان يعين الملك فى طغيانه محكمتان: إحداهما محكمة غرفة النجم ، والأخرى محكمة عليا أنشأتها إليزابث أول الأمر للحكم على من يخالف قرار توحيد العبادة ؛ وكان من الضحايا العديدين لهاتين المحكمتين أحد كبار رجال الدين فضرب وحبس ووضع فى الأصفاد وقطعت أذناه لأنه كتب ينتقد لود وأساقفته ؛ وأحد رجال القانون لأنه

(١) حمل ملتن على لود حملة شديدة فى قصيدته ليسيداس أثناء مقامه فى كمبردج .

التى سنها الشاعر لضاعت نصف جغرافية بلاد العرب ، إذ من المعلوم أن معجم ياقوت ومعجم البكرى كان الشعر مرجعهما الأول لوصف بلدان كثيرة . على أنهما لم يستوعبا كل شىء ولا تزال العناية بدراسة شعراء كالمتنبى والبحترى وأبى تمام مثلا من شأنها أن تساعد على تصحيح أسماء بلدان كانت معروفة فى العصر العباسى ، ولكنها وردت مغلوطة فى تواريخ الطبرى ، وابن الأثير » هـ .

* * *

وبعد ، فهاتان ناحيتان هامتان من الشعر طالت غفلة النقاد عنهما قرونا . ويبدو أن أول خطوة عملية ينبغى لنا اتباعها هى أن نضيف إلى كل (ديوان تاريخى) بعد ترتيب قصائده ملحقاً بتراجم أشهر الأعلام التى ورد ذكرها فيه ، ثم معجما لأهم البلدان التى نوه فيه بذكرها ...

وكيفما كان أمر شعرائنا أو القول فيهم ، فإن من اليسير أن نستقرى ما خالف الصواب من شعرهم ، ثم نلقى على ظلمته ضوءاً من حقائق التاريخ الثابتة بعد أن ندرج كل قصيدة فى موضعها من مجموعتها حتى تتصل بما قبلها وبما بعدها من شعر ، اتصالا قويا وثيقا تبتهج له نفوس طلاب الحقائق ، وتكتسب به الدواوين حرارة وحيوية يبدو معهما كل شاعر إنسانا حيا ، لا شبحا باهت الظل متخيل الوجود . بل تكتسب المعانى والحوادث المسرودة نفسها قوة لم تكن لها من قبل ، وتنطبع فى الأذهان بهيئة لا يدرك تناسقها وروعة جمالها إلا من تهيأ له — فى مرة أو أكثر — أن يمارس هذا الترتيب بين القصائد ، فيرى كيف تنطق الحقيقة الجافة بلسان الخيال الرطيب ، ويشهد كيف يتواطأ التاريخ الدقيق والأدب الرقيق معاً على غزو العقول بسحر جمالها ؛ وكيف يتجليان فى مرايا العقول كالفرقدين ، تنزلا من أفق واحد ، ليشرقا على دنيا واحدة .

محمود عزت عرفه

كتب كتابا يعيب فيه على من احترف التمثيل من الأوانس والسيدات مسلكهن فظن أنه يعرض بالملكة فيما كتب ولم يك جزاؤه أخف من سالفه ؛ ومن هذين المثلين ندرك مبلغ ما حل بالناس من ألوان العذاب .

ولما كانت المشكلة المالية هي التي تضطر الملك إلى الاستعانة بنواب البلاد ، فقد أشار سترافورد على الملك باتباع سياســـة الاقتصاد ليطرد استغناؤه عن البرلمان ، وكانت الحرب قد وضعت أوزارها ، فتحسنت الحالة المالية إلى حد ما وخيل إلى سترافورد أن ليس للبرلمان رجعة .

ولكن الملك وازن بين دخله ومنصرفه فلم تسره الموازنة ووجد نفسه لا يزال في حاجة إلى زيادة الدخل وإلا اشتدت به الضائقة ثانية ، فسلك سنة ١٦٣٤ مسلكا كان أبعد ما سلك عن الصواب ، وذلك أنه عمد إلى فرض ضريبة مباشرة ، وكانت تسمى ضريبة السفن ، وهي ضريبة قديمة كان من حق الملك وفق الدستور أن يفرضها على الموانى إذا تعرضت المملكة لخطر الحرب فتقدم الموانى سفنا أو ما لا يقوم مقامها ؛ ونظر الإنجليز هذه المرة فإذا بالملك يفرض هذه الضريبة وليس ثمة من خطر يتهدد المملكة ولكن الملك احتج بأنه يبتغي بها مطاردة ما يتهدد التجارة من القراصنة ؛ وتمادى الملك فخرج على القانون والعرف وفرض هذه الضريبة لا على الموانى فحسب بل وعلى داخلية البلاد ، ثم استمر يفرضها عاما بعد عام وكان الأصل فيها ألا تفرض إلا حين الخطر

ويأبى القدر إلا أن يرتطم الملك وكبير أساقفته في ورطة كانت هي القاضية عليهما ، فقد شاء لود أن يدخل في اسكتلندة النظام الأسقفي على الرغم من تمسك الاسكتلنديين بنظام الكنيسة البرسبتيرية ، وأعد لود كتابا للصلاة على نمط كتاب الصلاة في انجلترة ، وأراد أن يحمل الاسكتلنديين على اتباعه في كنائسهم ، فثار الناس هناك وأعلنوا سنة ١٦٣٨ في مجلس عام رفض النظام الأسقفي وطردوا الأساقفة الذين أرسلهم شارل إليهم فكان هذا تحديا صريحا لمشيئة الملك ؛ وأصبحت المسألة في الواقع تتصل بحق شارل في حكم اسكتلندة أكثر مما تتصل بالنزاع الديني ، وبات الموقف بالغ الخطورة ، فإذا استطاع الاسكتلنديون أن يعصوا الملك فما ذا عسى أن يكون وقع هذا في انجلترة

ولجأ الملك إلى الحرب وتأهب الاسكتلنديون للقتال وتلاقى الجيشان فأحس الملك ضعفه فهادن الاسكتلنديين وهادنوه وسكنت ريح الحرب إلى حين .

وأحس الملك بضرورة دعوته برلمانا فدعا ذلك البرلمان في ربيع سنة ١٦٤٠ وعرف باسم البرلمان القصير لأنه لم يلبث أن أنكر على الملك فرض ضريبة السفن ، ولما ساومه الملك وعرض أن يتنازل عن ضريبة السفن نظير أن يمنحه البرلمان مبلغا معينا رأى البرلمان أن قبوله هذا العرض يتضمن الاعتراف بحق الملك في فرض تلك الضريبة فأبى إلا أن يكون تنازل الملك عنها بغير قيد وضاق الملك بالبرلمان فحله في نفس العام .

ولكن الاسكتلنديين عبروا نهر التويد في الصيف زاحفين على انجلترة ، ودعا الملك مجلسا من الأعيان فأشار هذا المجلس بوجوب الاستناد إلى برلمان ، ولم يجد الملك بدا من الإذعان فدعا برلمانا جديداً في نفس السنة وعرف هذا البرلمان بالبرلمان الطويل ، وظهر في هذا البرلمان زعماء أشداء كان من أشهرهم بم وهمبدن وألبثر كرمول ...

ووجد البرلمان الفرصة سانحة ليصفي حسابه فوجه إلى لود واسترافورد تهمة الخيانة العظمى للشعب الإنجليزي وأطلق السجناء من أنصار الحرية ، وأزال من الكنائس كل ما يصلها بروما من مظاهر وصور وتماثيل ، واحتاط البرلمان للمستقبل فأصدر قراراً يقضي بأنه لا يجوز أن ينقضي أكثر من ثلاث سنوات بغير أن يدعى برلمان ، وقدم سترافورد إلى المحكمة ، ووضع تحت الحراسة كيلا يهرب ، وكان لا بد من موافقة الملك حتى تقام الحراسة فوافق الملك مع أنه وعد سترافورد أن يدافع عنه وأدين سترافورد وأعدم وتنفس أنصار الحرية الصعداء ، وبالغ البرلمان في الحيطة فأصدر قرارا مفاده ألا يجوز حل البرلمان إلا بموافقة أغلبية أعضائه ؛ وقضى البرلمان بحل محكمة غرفة النجم والمحكمة العليا المختصة بالشؤون الدينية

وخيل لأنصار الحرية أنه لم تعد تعترضهم عقبات ، ولكنهم ما لبثوا أن أحسوا روحا رجعية في مقاعد البرلمان نفسه ، وذلك

بسبب مغالاة البيوريتانز ضد النظام الأسقفى ، فقد قدم هؤلاء مقترحا إلى البرلمان يقضى بإزالة هذا النظام كله وسمى مقترحهم باسم مقترح الأصل والفرع ، ولكن بعض النواب كانوا يميلون إلى النظام الأسقفى فعارضوا هذا المقترح وانضم إلى هؤلاء نواب آخرون أشفقوا من تطرف البرلمان فى استلاب سلطة الملك ورأوا أن الملك قد أذعن أكثر مما يجب أن يذعن وتوجسوا خيفة من عواقب هذا التطرف كأنما يلمح لهم شبح الفوضى .

وأخافت هذه الرجعية بم وزملاءه ، فأقدم بم على عمل خطير وهو ما سمى الإعلان الأعظم وهو عريضة قدمت إلى البرلمان وفيها جميع ما ارتكب الملك وأعوانه من أخطاء فى السياسة والدين منذ بداية عهده وطلب إلى البرلمان أن يقرر صحة ما جاء فيها ، وبعد مناقشة عنيفة فى جلسة طويلة استمرت الليل كله وافق البرلمان عليها بأغلبية تسعة أعضاء فحسب فأظهرت هذه العريضة عدد أنصار الملك فى البرلمان وتبين أنه عدد لا يستهان به .

وتزايدت مخاوف بم وأنصاره ، وكان الملك قد ذهب إلى اسكتلندة على أثر وفاق عقده البرلمان بين انجلترة والجيش الثائر فى اسكتلندة ، فلما عاد شارل إلى انجلترة استقبل فى لندن بحفاوة عظيمة ... ...

وكأنما أغرته تلك الرجعية فى مقاعد البرلمان وهذه الحماسة التى لقيه بها أهل لندن بأن يضرب ضربة ، فخطا خطوة جريئة ود كثير من أنصاره أنفسهم لو أنه لم يخطها ، وذلك أنه وجه فى سنة ١٦٤٢ إلى خمسة من أعضاء البرلمان على رأسهم بم تهمة الخيانة العظمى ، وبعد يومين ذهب إلى البرلمان بنفسه على رأس قوة من حرسه وقفت عند بابه شاكية السلاح وطرق شارل الباب ودخل القاعة ليقبض على الأعضاء الخمسة ، ونهض النواب وقوفا وحسروا القبعات عن رؤوسهم ، واتجه الملك إلى منصة الرئيس فخر أمامه على ركبتيه وساد الصمت فلا يسمع إلا همس ، ودار الملك بعينيه يطلب الأعضاء فلم يتبين فى الصفوف منهم أحدا فقد نما إليهم ما اعتزمه الملك قبل حضوره بدقائق فقروا فسأل عنهم الرئيس فأنكر معرفته متى حضروا ومتى انصرفوا ، ونظر الملك إليه نظرة شديدة ثم خرج هادىء الخطى يعلن إلى حرسه أن قد « طارت الطيور الخمسة » .

* * *

وتسامعت لندن بما كان من أمر الملك فهبت المدينة التى لقيته بحفاوتها منذ قليل تدافع عن النواب ، واشتدت حماسة الناس ، وصمموا على أن يعود الأعضاء إلى مجلسهم فى مظاهرة كبرى وأعدت الزينات فى الشوارع وعلى صفحة النهر فى القوارب ، وكان لا بد أن تمر المظاهرة بقصر الملك فلم يطق الملك أن تقع عيناه عليها أو تسمع أذناه ضجيجها فترك المدينة .

وأخذ البرلمان يعد العدة للدفاع عن كيانه ، وأعد الملك عدته ليسحق بها البرلمان ومن يظاهره من الناس ، واندلعت نيران الحرب الأهلية التى انتهت بهزيمة شارل بعد أن دارت رحاها أكثر من أربع سنوات .

(يتبع) العفيف

اطبعوا مطبوعاتكم فى :

مطبعة الرسالة

حيث تجدون فيها :

الذوق ، والنظافة ، والسرعة

والدقة ، واعتدال الأسعار ...